I. نظرية الأدب المفهوم والأسئلة الكبرى.

1-مهام نظرية الأدب

إن سؤالا آخر لا يقل إحراجا عن الأسئلة السابقة (سؤال الأدب والنص...) مطروح، ويتعلق بمصدر الإبداع الأدبي، بين من يعتبره انفعالا نفسيا أي داخلي المصدر، وبين من يعزوه إلى مصادر خارجية، وهي تبريرات عرفها السياق العربي خاصة في العصر الجاهلي حين عزا العرب الشعر إلى مصادر غيبية، فتحدثوا عن الجن والشياطين ووادي عبقر، بل إن الشعراء كانوا يتنافسون في إسناد أشعارهم إلى الجن والشياطين، يقول العجاج:

إني وكل شاعر من البشر**شيطانه أنثى وشيطاني ذكر**

فالبعض يعزو الشعر إلى عناصر خارجية أقوى من الإرادة الإنسانية والطبيعة البشرية، لذلك تحدثوا عن الوحي والإلهام، وعن ربات الشعر les muses عند اليونان القدماء، دون إغفال الطبيعة الإنسانية المائلة إلى تذوق النغم وحب الإيقاع، وموقع الحلم والخيال في النفس البشرية، إضافة إلى ما تختزنه الذاكرة الإنسانية من مكبوتات يتم إخراجها عن طريق انفعالات استثنائية تتجسد في شكل إبداعي معين. كل هذه الآراء حول مصدر الإبداع تعطي انطباعات مختلفة حول تصور الأدب بين رؤية ترى فيه خلقا وأخرى تنظر للأدب كلعب، بينما تتحدث آراء أخرى عن الأدب كصنعة، وكل هذه الاختلافات ترجع بالأساس إلى الاختلاف في تصور مفهوم الأدب ووظيفته.

إن أغلب الدراسات رغم اهتمامها بالأدب لا ترقى إلى مستوى اعتبارها نظرية في الأدب، لأن مدلول نظرية يشير إلى البناء المحكم، وهو لا يتوفر لأغلب هذه الدراسات، فهي تتجه صوب مكون دون آخر، أو تمزج بين عناصر داخلية وأخرى خارجية .

فنظرية الأدب تهتم بالدرجة الأولى بالبحث في **نشأة الأدب وطبيعته ووظيفته**، وهذا معناه أن نظرية الأدب تبحث في المكونات التالية:

1-**نشأة الأدب**: وترتكز على إبراز طبيعة العلاقة القائمة بين العمل الأدبي ومنتجه.

2-**طبيعة الأدب**: وتعني إبراز ما تتأسس عليه الأعمال الأدبية من أسس عامة كلية، أي مجمل الخصائص والسمات التي يتأسس عليها كل عمل أدبي .

3-**وظيفة الأدب**: وتعني الاهتمام بالمكون الخارج نصي ضمن العملية الإبداعية؛ إن الأمر يتعلق بالقارئ وطبيعة الأثر الذي يمكن أن يحدثه فيه العمل الأدبي.

إن سؤالا أساسيا لابد أن نفكر فيه ونحن نقف عند مهام نظرية الأدب؛ فهل هذه المهام وهذه الأسئلة هي حبس على منظر الأدب؟ ألا تعتبر الدراسات الأدبية والنقدية والتاريخ الأدبي شريكا لمنظر الأدب في طرح هذه الأسئلة؟

فصحيح أن زاوية التعامل تختلف بين كل هؤلاء، إلا أن ذلك لا يمنع من وجود نقط مشتركة (تقاطعات) بينهم، فالمؤرخ (مؤرخ الأدب) يقصر مهمته على ظروف وملابسات إنتاج العمل الأدبي وكذا الشروط التاريخية المتحكمة في ذلك، أما الناقد فهو منشغل بالموازنة والفصل بين الجيد والرديء من النصوص، غير أن ذلك لا يمنع من أن تتقاطع مهام كل هؤلاء عند النص، فهو منطلق مُنَظِّرِ الأدب أيضا والذي يبحث في النصوص عن كليات وشروط عامة تبين حقيقة الأدب وأثره كظاهرة عامة.

وترسيما للحدود بين هذه الحقول المعرفية يمكن القول: "**إذا وصف النص بأن حققه ودرس ما حوله، من عوامل البيئة والشخصية وعوامل الإيحاء، أي حقق الصلة بينه وبين منتجه وبينه وبين ظروف الحياة من حوله كان هذا تاريخ أدب" وإذا حكم على النص "حكما أي إذا وصف انفعاله به فطبق بعض الموازين عليه أو جال في فيافي الحياة والفن من خلال هذا النص فكل هذا حكم ولعله تعليل للانفعال ليس إلا، فكل هذا نقد أدبي صرف " أما إذا وصف الناقد الأدب عامة مبينا كنهه وحقيقته وصفاته و آثاره خرج وصفه هذا إلى ما نسميه بنظريات الفن الأدبي**". سهير القلماوي، فن الأدب، المحاكاة، ص 21 .

لكل ذلك، من اللازم أن نميز بين الأدب والدراسة الأدبية، أي بين الخطاب الواصف (الدراسة الأدبية) والخطاب الموصوف (الأدب)، بين الفن والإبداع وبين المعرفة، فالثاني هو نتاج الأول ومحاولة لسبر أغواره عبر البحث في مكوناته وأسسه، ليتحول الثاني (الدراسة الأدبية) إلى علم تصنيف ورسم لمعالم الأدب عبر دراسات وصفية تتحول عبر التراكم إلى تقعيد ومعيرة.

2- علاقة الأدب بالدراسة الأدبية

تتفرع عن سؤال دراسة الأدب أسئلة عديدة، وذلك بالنظر إلى النظرة السائدة عن الأدب والتي تُخرجُه من دائرة المعارف التي يمكن إخضاعها لمعياري الصواب والخطأ، لتخضع لمعياري الجمال والقبح، فالأدب حسب وجهات نظر متعددة فن أو إبداع يستعصي على قواعد الخطأ والصواب، لأنه لا يدعي الكشف عن حقائق أو هدم أخرى، غير أن ذلك لا ينبغي أن نفهم منه خلو الأدب من أي شكل من أشكال المعرفة (الدرجة الصفر للمعرفة)، فرغم خضوعه لمعايير الذوق (الجمال والقبح)، إلا أن ذلك لا يعدم الأدب من حمل معارف وأفكار قد تتخذ طابعا مختلفا عن خطابات علمية صرف، ليعمد إلى التكثيف عبر أساليب استعارية تتصل بعمق التفكير الإنساني وبصلبه عبر صيغ غامضة تحتاج إلى تمعن وتحليل.

إن في امتداد دراسة الأدب سؤال آخر لا يقل إحراجا، إنه سؤال خطة الدراسة والمنهج المعتمد، إذ بناء على طبيعة الأدب ونواته الأساسية تنمو إشكالات أخرى تتصل بطبيعة الأدب وما يمكن أن تفرضه منهجيا

من اعتبارات تفرض مواكبتها إجراءات استثنائية. فكيف يمكن دراسة الأدب؟ وعلى أي منهج يمكن الاعتماد في ذلك؟

البعض يرى أن دراسة الأدب تحتاج إلى معايير تتسم باليقينية والموضوعية والحياد، ولا يمكن لهذه الشروط أن تتحقق دون الاعتماد على مناهج مستمدة من العلوم الحقة أو العلوم الطبيعية، وهي تحويلات ممكنة حين يتعلق الأمر بدراسة الأصول والعوامل المسببة بلغة ريني ويليك وأوستن وارين، أو حين يتعلق الأمر بعمليات كمية واصفة تعتمد تقنيات معروفة كالإحصاء أو رسم الخرائط والرسوم البيانية، غير أن كل هذه المناهج لن تفيد إلا في عمليات محدودة غايتها تبيان التوجه العام، أو دراسة بعض الجزئيات كالأوزان أو الحروف ...عدا ذلك فلا يمكن لهذه المناهج أن تفيد في دراسة فن يقوم على الخلق والابتكار.

إن هذا المنحى التجريبي الذي اتخذته دراسة الأدب على المستوى المنهجي انتهى إلى التفكير في مناهج تنسجم وطبيعة الرؤية المتبناة في النظر إلى الأدب، فكانت الرؤية النفسية نتاجا للطبيعة التصويرية للأدب (انعكاس لحالة نفسية)، في حين كانت النظرة الاجتماعية ناتجة عن رؤية تعتبر الأدب وثيقة مختزلة للعلاقات الاجتماعية...غير أن هذا التكييف للمنهج مع طبيعة النظرة للأدب فتح باب المصداقية على مصراعيه، فكان التشكيك في مناهج الدراسات الأدبية مدخلا جديدا لتناسل أسئلة جديدة تبحث في المناهج المعتمدة في الدراسات الأدبية.

فهل المناهج المعتمدة في دراسة الأدب تملك من المصداقية كما هو شأن مناهج العلوم؟